من أدب المدرسة

أستاذ

للأستاذ علي الطنطاوي

لما بلغنا قرية (ساريتا) كان الصبح يتنفس، فطرقنا أول باب لقيناه، فلما فتح لنا واحتوانا (النزل) المعد للضيفان، سقطنا من الكلال والإعياء كالقتلى، فلم نلبث أن غرقنا في لجة الكرى. ولا عجب أن يبلغ منا التعب هذا المبلغ وقد سرنا الليل كله على الأقدام نصعد جبلاً ثم نهبط وادياً ثم نتسلق الصخر. حتى أدركنا هذه القرية التي فرت من العمران، وتغلغلت في الأودية المقفرة من لبنان الشرقي حتى وجدت هذه الذروة التي لا يضارعها شيء في عزلتها وعلوها وضياعها بين الأرض والسماء فاستقرت عليها

ولما أفقنا ورأينا احتفاء القوم بنا، وعجبهم من سُرانا إليهم وقدومنا عليهم، سألناهم وضربنا معهم في شعاب الأحاديث، فعلمنا أنه لم ينزل بلدهم (أعني أنه لم يصعد إليها ...) غريب عنها قبلنا، وكانوا يكلموننا على تخوف وحذر، فلما انتسبنا إليهم، وعرفناهم بنفوسنا داخلهم شيء من الاطمئنان. غير أنهم لم يكونوا يجيبون عن أسئلتنا وإنما يحيلونها على الأستاذ (نحن فلاحون لا نفهم عنكم، ولكن إذا جاء الأستاذ ...) ورأيتهم يذكرون الأستاذ كما تذكر الرعية الملك المحبوب، تبرق عيونهم حباً، وتخشع أصواتهم احتراماً، فكنت أعجب أن يكون لمعلم القرية، وهو لعمري أستاذهم مثل هذه المنزلة، وعهدنا بمعلمي القرى أن الجندي أكبر في عيون الفلاحين منهم. وقلت: ألا تدعون لنا هذا الأستاذ المحترم حتى نراه؟ فلما سمعوا هذه الكلمة اضطربوا وتلفتوا يتبادلون النظرات، وعراهم مثل ما يعرو المؤمنين سمعوا كلمة الكفر. وكانت سكتة طالت، فأعدت السؤال، فقال صاحب المنزل وهو يبذل أكبر الجهد حتى يملك غضبه فلا يؤذي ضيفه: إن الأستاذ يزار ولا يزور. فلما سمعت ذلك اطمأننت وقلت: لا بأس، إنا نتشرف بزيارته، ولو علمت عادته ما سألتكم دعوته، فقاموا وقد سرى عنهم بعض الذي وجدوا، ومشينا نصعد في طرقات القرية الضيقة الملتوية، وأنا أتصور هذا (الأستاذ) بين الوهم فلا أراه إلا مثل من عرفت من معلمي الصبيان، غير أن له فيما يبدو دهاء ومكراً، تخرق بهما على الفلاحين وموه عليهم حتى حسبوه شيئاً وما هو بشيء

حتى إذا بلغنا ذروة الجبل وجدنا عليها بيتاً هو أعلى بيت في القرية و (العين) أسفل منه، وحوله حديقة لطيفة، فدخلنا البيت فإذا فيه فرش نظيف، وأثاث من أثاث المدن، وخزانة كتب بالقرب منها مكتب صغير عليه أوراق وأقلام، وكتاب مفتوح عرفت من نظرة واحدة أنه «الإحياء» للغزالي، فلا والله ما أظن أني عجبت من شيء عجبي منه. ولبثنا هنيهة؛ ثم دخل علينا شيخ أبيض اللحية، قد وضع على كتفيه عباءة ستر بها ثوباً من ثياب التفضل أبيض نظيفاً، فرحب بنا بلهجة فصيحة وانطلق يحدثنا. أما الفلاحون فقد جلسوا عند الباب لم يقتربوا من الشيخ إجلالاً له، وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير

كان الشيخ يتكلم وكنت أحدّ النظر إليه وأكدّ ذهني لأذكر أين رأيت هذا الوجه. فلما طال ذلك مني ولحظه قال: مالك يا بني؟ قلت: أظن أني أعرفك يا سيدي. فضحك وقال: وأنا أعرفك يا بني، أما كنت في المدرسة التجارية سنة ١٩١٨؟ فتأملته ورأيت كأني رجعت طفلاً أنظر من وراء ثلاث وعشرين سنة إلى أستاذي الجليل الشيخ «عبد الواسع»، فلم أملك أن صحت: أستاذي! ووقعت على يديه أقبلهما، وأقبل يمسح على ظهري ويقبل جبيني، وقد استعبر كل من حضر

أستاذي الذي ترك المدرسة وأحيل إلى المعاش منذ عشرين عاما، وانقطعت أخباره عنا وحسبناه مات، لا يزال حياً؟ ويقيم في قرية (ساريتا) الضائعة بين السماء والأرض! إن هذا لعجيب

* * *

قلت وقد سكن المجلس بعد أن حركته هذه المفاجأة الغريبة: وكيف عرفتني يا سيدي الأستاذ، وقد غيرتني الأيام؟ قال: ما تغيرت عليّ، ولقد ذكرتك من أول نظرة. ألم تكن في الصف الخامس حينما انتهت الحرب، وخرج الأتراك من الشام ليدخلها الشريف؟ ألم تكن في المقعد الأول جيال الشباك، وإلى جانبك (سرّي) أين هو (سري) الآن؟ قلت: لا أدري يا سيدي، ولم ألقه أبداً بعد تلك السنة. قال الشيخ مترققاً ناسياً بلهجته التي كان يخاطبني بها وأنا صغير (لم أنسها) قال: ولم يا بنيّ؟ لماذا لا تصل إخوان المدرسة؟ أما علمتك الحياة أن صداقة المدرسة خير صداقة وأمتنها؟ أصلحك الله يا ولدي

وأطرق الشيخ يفكر، ثم قال : هل علمت يا ولدى أن المعلم يتمنى ألا يكبر تلاميذه أبداً، وأنه لا يتصورهم إلا كما عرفهم أول مرة ولو صاروا رجالاً؟ أنا لا أرى فيك الآن إلا ذلك الصبي الذى كان فى المقعد الأول حيال الشباك. فقدر المحنة التى يصاب بها المعلم حين يرأسه أحد تلاميذه. أتعرف عدنان؟

قلت : ومن عدنان؟ قال : لا. لم يكن معكم، هو أصغر منكم. عدنان هذا كان من أصغر تلاميذى وأحبهم إلىّ. لقد جعلته الأيام ناظر المدرسة التى كنت فيها، فتصوره وهو يدعونى إليه ويستقبلنى قاعداً، ويأمرنى بأمره. ولقد نالنى مرة بسوء لأنى لم أوفه ما يراه حقه من الاحترام. وكيف أحترمه يا ولدى وأنا لا أقدر أن أرى على كرسيه إلا عدنان الطفل ذا الشعر المهي؟ كيف أحترمه؟ أأحترم ولدى؟ سامحه الله. سامحه الله لقد آلمنى وآذانى

إن المعلم يحس بوخزة فى كبده إذا أعرض عنه تلاميذه أو أنكروه أو ترفعوا عليه. كأن أولئك الأطفال هم الذين ترفعوا عليه. لا يعلم المسكين أن الطفل لا يبقى أبد الدهر طفلاً... لا. لا يتخيل ذلك أبداً...

وسكت الشيخ قليلاً ثم رجع يقول : وكنت ترفع أصبعك دائماً، أرأيت؟ إنى لم أنسك. وكيف ينسى المعلم تلاميذه وهم بعض ذكرياته، والذكريات هى الحياة

ثم سألنى : وماذا تشتغل أنت الآن؟ فضحكت وقلت : معلم

قال : آه... مسكين... لماذا اخترت هذه المهنة يا ولدى؟

قلت : إنى سأتركها يا سيدى؛ قال : وتظن أنك تستطيع؟ إن تلاميذى الذين أحببتهم ومنحتهم قلبي، قد أنكرونى... لم أعد أخطر لهم على بال. لم يزرنى منهم أحد... لقد رأيت منهم ألوان الجحود، ولكنى لا أزال أحبهم، وأتمنى لو أستطيع أن أضمهم إلى صدرى... آه... كم يتألم الأب إذا رأى ولده يعرض عنه وينكره ويمر كأنه لا يعرفه؟ لم ألق منهم خيراً، ومع ذلك فأنا أحب أن أنشئ غيرهم، وأن أصب البقية الباقية من روحى وحياتى فى نفوس أطفال جدد، أعلم أنهم لن يكونوا خيراً من أولئك، ولكن هذه هى آفة المهنة... إنها مهنة ليس فيها إلا الألم... ولكن صاحبه يستمرئه ويجزع لفقده كصاحب (الكوكائين) يأخذه وهو يأخذ حياته، فإذا افتقده حن إليه... أليس هذا من الغرائب؟

إنى أمر على مدرسة القرية، فأسمع الطلاب يرددون درساً، أو يرتلون أنشودة، فيخفق قلبي فى صدرى، وأحسد هذا المعلم الذى أخذ منى أولادى... لا تعجب يا ولدى... سل الفلاح الذى يشق الأرض ويغرس فيها البذر وينتظر النبتة الضعيفة... فإذا ظهرت تعهدها بالسقى والعناية، وقاس طولها يوماً بعد يوم، فلا تنمو أنملة إلا وضع فى هذه الأنملة أمله ورجاءه وخوفه وإشفاقه وأحاطها بعواطفه، وصب فيها من ماء حياته... حتى إذا نما النبت واستطال، وظللته غصونه، وتدلى من حوله زهره، وأينع ثمره، اضطر إلى بيعه... فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى يراه فى يد غير يده... سله كم يتألم ويشقى، ويتقطع القلب منه حسرات كلما نظر إلى هذه الأشجار، وذكر ما له فيها من ذكر وما أنفق عليها من أصباحه وأماسيه، ومن حبه وأمانى نفسه... وإنها لأشجار... جمادات لا تعقل... فكيف بى وقد ربيت بشراً ثم أعرضوا عنى ونسوا عواطفى وحبى... وما نسيتهم ولا أقلعت عن حبهم؟

وما كان لى يا ولدى أن أزعجك بحديثى لولا أنى أنفس به عن نفسى. إنى أعيش وحيداً فى هذه القرية المنعزلة لا أدرى كيف أزجى الباقى من أيام حياتى. إنى أشكو الملل، ولا أطيق النوم، فلا أجد إلا النجم أراقبه وذكرياتى أناجيها. وكثيراً ما تثقل علىّ هذه الذكريات، حتى لأضل قلبي بين حاضر لا متعة فيه وماض لا رجعة له...

لا، يا ولدى، لا تحرص على هذه المهنة. اتركها إن استطعت فهى محنة لا مهنة. هى ممات بطىء لا حياة. إن المعلم هو الشهيد المجهول الذى يعيش ويموت ولا يدرى به أحد، ولا يذكره الناس إلا ليضحكوا من نوادره وحماقاته...

* * *

وعدنا من العشية نسلك تلك الأودية، ونتسلق تلك الصخور عائدين من (صاريتا) ولا يزال حديث أستاذى يدوى فى أذنى، فأحس به فى هذه البرية الساكنة قوياً مجلجلاً، ولكن الناس لا يسمعونه، وإن هم سمعوه لم يحبوا أن يفهموه!

علي الطنطاوي